غادة بابل

La Belle de Babylone..

رواية تاريخية اخلاقية تصف الحياة في بابل

خرجت شميرام من قصرها في بابل تلك المدينة المطلة على الفرات . وكان هذا الصرح الشامخ في الجانب المعروف بـ « خديميرا » اي باب الله . فوقفت على ضفة النهر وشرعت تنظر الى الجانب الاخر نظرة متعجب دهش . لما ظهر لها من الابنية المنسقة . والقصور الباذخة . والآثار الشاخصة في جانب « دنتبرا » اي محل شجرة الحياة . فاطربتها رؤية اشجار الصفصاف المتدلية الاغصان الوارفة الظل ومنظر النخل الباسق الذي يناطح كبد السماء ثم حان لها التفاتة الى الجواري والوصائف اللواتي كن معها فقالت لهن : انصرفن جميعكن الى البيت ولا يبق معي هنا إلّا « نتو » نجيتي ، اذ لي نذر اريد ان اقوم به في هيكل الآلهة « انو وبل وأيا » . وربما يطول مكثي فيه فتنتظرنني والدتي وتستعطفنكن .

ما كان منهن إلّا ان رجعن على اعقابهن . تلبية لامر سيدتهن ، بعد ان قبلن يديها ، وقمن باداء فرائض الاحترام والعبودية .

انفردت شميرام بنتو نجيتها وساد السكوت بينهما . وكانت شميرام مطرقة ذاهلة كأن في خاطرها فكرا يجول وتريد ان تكشفه لنتو . وتستطلعها على اسرار ضميرها . ولكن عاملا سريا كان يعقد لسانها

شاهدت نتو حالة سيدتها وعرفت شيئا من اضطرابها وحيرتها غير انها لم تجسر على ان تبادرها بالكلام او تلقي عليها سؤالا . وما كان منهما حتى بلغتا برجا شاهقا عليه آثار الابهة . والعظمة بادية عليه . وعلائم المجد والوقار ظاهرة فيه وهو ذو سبع طبقات كل طبقة منها مصبوغة بلون فضلا عن النقوش البديعة المتقنة التي ترى عليها مما يأخذ بمجامع القلوب ويفتن الانظار .

كانت الطبقة الاولى مصبوغة بالابيض والثانية بالاسود والثالثة بالقرمزي

والرابعة بالازرق والخامسة بالاحمر والسادسة محلاة بالفضة والسابعة بالذهب . وفي قمة الطبقة السابعة تمثال من ذهب علوه عشرون قدما للاله « بل » وفي جانب هذه الزقورة مائدة من النضار . وكانت شمس بابل وانوارها المتألقة الصافية تضرب على تمثال الذهب فيتلالأ كانه شعلة يملأ ضياؤه العيون وكأن الهيكل عالم الفناء يناجي عالم البقاء . وكان هذا البرج هيكلا اقيم لعبادة الآلهة السبعة .

مرت شميرام بهذا المعهد الديني ولم تحفل به . وغفلت عن القيام بفروض الخضوع والاحترام لارتباك افكارها . والهواجس الكثيرة التي كانت تنتابها فانتهزت نتو هذه الفرصة لتقطع السكوت الذي كان سائدا بينهما وقالت لها : سيدتي اسمحي لي ان اقول لك إننا بازاء الزقورة وحضرتك المبجلة قد غفلت عن القيام بشعائر الدين وواجبات الاحترام وهذا مما ينزل عليك غضب الآلهة ويجلب اليك انتقامها منك .

فانتهرتها شميرام قائلة : دعيني يانتو فان الهموم قد ساورتني وغشت على بصري وبصيرتي . فاين هي الزقورة يا امة السوء ؟ فانني لم اشاهدها ولا علم لي بمرورنا بها .

نتو — سيدتي انى تساورك الاحزان وعلام يد الاشجان قد ضربت على اوتار قلبك بريشة اليأس حتى ان صدى الهموم يمازج نبرات صوتك فتبدو على محياك الوسيم ظواهر الغم والاسى . ويفعل الجوى في نفسك فعلا ينسيك اقدس الواجبات حتى انه لم يفسح لك مجالا لتتقدمي بمشاهدة مهبط نعم الآلهة عند اجتيازنا بالزقورة .

شميرام — اواه ! وا حسرتاه ! لو اصاب ما في نفسي جبل كردو لدكه دكا وبسه بسطا . ولو كانت نار حزني في عهد ابينا « ستبشتم » لنشفت مياه الطوفان واقفر العالم . آه ! ايها الاله « بل » انك حنقت على الانسان في عهد ذلك البار وعزمت على ان تمحوه وتلاشي نسله بمياه الطوفان ولكن توسلات البار « ستبشتم » هدأت غضبك ونالت نصيبا من عفوك ورضوانك . فقلبي الصغير معذب اليوم باعذبة مبرحة

وغارق في سيل عرمرم مالم تنجده رحمتك وتفرج عني بعض الفرج.
افلا تعطف على شرخ شبابي وريعان عمري ؟

نتو ــ ماذا داهمك اليوم حتى القاك في هذا اليم من الحزن والكآبة لا بل قلب فرحك حزنا ورجاءك يأسا ؟ عهدي بك الفنج والدلال والفرح والمرح ؟ فما سر هذا الانقلاب فيك ؟

شميرام ــ واي رجاء لي ؟ ان المنية لاحلى لي من حياة كلها مرائر . والقبر عندي افسح فضاء واسعد مثوى من قصور الملوك .

نتو ــ سيدتي العزيزة ! لقد اتخذت تبرمك حتى الان بين الجد والهزل اذ لم اجد داعيا يثير كوامن شجاك فالالهة قد غمرتك بنعم كثيرة ودرت عليك اخلاف احسانها وعوارفها . انبتتك في بيت تحسده عليك البيوت اذ له مجد مؤثل ، وشرف موروث ، وشهرة بعيدة وثروة طائلة . وقدتك من اديم الحسن والجمال والبهجة والنضارة وزينتك بكل بديع رائع . وانت في بيت والدتك ربة الامر والنهي . ولا تكادين تنبسين ببنت شفة حتى تتحقق رغباتك فما تبرمك إلا بطرا ، وماحزنك إلا وليد اوهام واشباح .

كانت شميرام تسمع هذا الكلام ساخرة . هازة رأسها هزة الاستخفاف بكل هذه النعم : ولما انتهت نتو من خطابها . اجابتها بصوت يقاطعه اليأس والاسف : وهل تجهلين يا نتو ان النعمة قد تكون حينا نقمة . ويكون الشرف الرفيع عائلا على هوى القلب . وما الغنى والحب والنسب والجمال والشبيبة إلا عوامل تقيد الانسان ان لم تخدم رغائب النفس . فللنفس سلطان شديد الشكيمة ان لم يطع يمت الجسم نحيلا .

نتو ــ سيدتي : خففي عنك جزعك ففي عباراتك احاجي والغاز يعسر على الكهنة فك غوامضها . فاني لي كشف اسرارها فبوحي لي بما يكنه صدرك لعلي ارشدك الى ما يسري عنك الهم . هذا وانا رهينة اشارتك واطوع اليك من انامالك وافدي حياتي لسرورك وكل ما عز علي يهون لي في سبيل رضائك .

في هذه التضاعيف بلغت شميرام ونتو العيكل فانقطع الكلام بينهما .

العيكل بناء فخم واسع الارجاء ثابت الاركان محكم البنيان متقن الهندسة تفنن ارباب الصناعات في افراغه في قالب الاتقان فاتى طرفة بديعة في آثاره البابلية إذ ترى على جدرانه التصاوير الناتئة وهي تمثل الحيوانات والاشجار المتضاربة الانواع المصبوغة بالالوان الزاهية الزاهرة مما يسر النظر ويطرب الخاطر . وفي العيكل اصنام الالهة المختلفة وقد نحتت نحتا في الحجر والصخر وقد اجاد صانعوها كل الاجادة حتى انهم حاكوا الطبيعة في مقوماتها وتشخيص اعضائها وتمثيل ادق اجزائها . وكان تمثال الاله « انو » على شكل انسان ذي لحية طويلة له ذنب كذنب النسر وراسه راس سمكة تسقط على كتفه وظهره وتمثال الاله « بل » بهيئة ملك جالس على عرش عظيم وللاله « ايا » اربعة اجنحة مبسوطة . وهناك غير هذه التماثيل .

كان العيكل غاصا بالزوار والمتعبدين . وفي طرف منه مذبح تقدم عليه الضحايا والقرابين . هناك توقد النيران في مواقدها ويحرق البخور في مجامره فتتدلع ألسنة نارية من الاولى تلقي هيبة وجلالا في المعهد الديني ويعطر دخان البخور باريجه فضاء العيكل وتتصاعد منه سحابة كأنها تريد ان تجمع بين الارض والسماء فيوثر هذا المشهد الفتان تاثيرا سريا في النفوس . ويزيد الكهنة المنظر بهاء بنبراتهم الدينية . فتراهم يقومون بسدانة العيكل ويطوفون بتمثال الاله وينشدون الاناشيد بصوت رخيم وبين آونة واخرى يتمتمون بالفاظ لا تفهم ، عليها مسحة السحر وعلى محياهم علائم الرياء باذية اذ اتخذوا المين والخداع من اجل الوسائل للاستبداد بالشعب والتبسط في السلطة واحتكروا العلم والعرفان وتذرعوا بهما ليضيقوا الخناق على الشعب الجاهل ويستنزفوا ثروته .

تقدمت شميرام في العيكل وقد ضاقت بالاحزان ذرعا . واخذت تناجي الالهة بقلب متلهف ولوعة محترقة واغرورقت عيناها بالدموع وهي لا تعي أفي الدنيا هي ام في عالم الارواح وهجست في نفسها ان عاملا سريا يدفعها الى مراقي الالوهية فقالت : ايها الاله « انو » ايا الالهة ورب العالم الاسفل ورب

الظلمات والكنوز الخفية المستترة يا من القدرة طوع ارادتك ، والسلطان مسخر في خدمتك والكون لك مقدس والعالم لك معبد . ويا ايها الاله « بل » يارب العالم يامن بيده مفاتيح الاقاليم ومقاليد الاصقاع والبلاد والممالك ، يا من تخضع له الارواح صاغرة ، يا من يلتجىء الى ربو بيتك العبيد والضعفاء ، ويا ايها الاله « ايا » يارب العقول ومرشد الافهام يارب العالم المنظور وسيد الكائنات ، وينبوع العلوم ومعدن الشرف ، واصل الحياة ، نستمد من انوارك الالهية الرشد والعون والايد . ايتها الالهة الثلاثة انظروا عطفا على جبلتكم وصنعة ايديكم التي ترزح تحت البلايا والمصائب ارحموها رحمة واسعة .

بينما كانت شميرام تقوم بالصلاة كان « بيروس » الكاهن الكلداني يرمقها بنظره ويحاول ان يكشف مافي نفسها ويقف على ما في ضميرها . وزاد رغبة في ذلك حين رأى عليها ملامح الحسن والجمال فصبت اليها نفسه وخفق قلبه شوقا وغراما . فاخذ يفكر طويلا في العامل الذي حمل تلك الفتاة على التنهدات والزفرات. وانت تعلم ان الكاهن الكلداني فطن لبق في استمالة الشعب وله مقدرة فريدة على اغواء القوم وقراءة مخبآت صدورهم . وكان موقف شميرام يدل على شيء مما في نفسها اذ كانت في الهيكل اشبه شيء بالحمامة الساجعة على فنن الشجرة تفرد مستعطفة اليفها . فخف اليها مترنما طربا وقد اسكرته الخمرة التي شربها منذ الصباح وعبقت فيه انفاس الحميا فمر بين الجمهور يميد ويتمايل وهو يسارق النظر الى الغادات فتثير في قلبه ثائرات الشعور . فتقدم من شميرام وقال لها : ايتها الفتاة عدني الاله «بل» وعدا صادقا بان تخصصي نفسك له ليلة تقضينها في هيكله في التهجد والعبادة فيزورك ويقدسك وهو يرأف بلا مرية بشبيبتك وينيلك رغبات قلبك فهو شفيق رحيم ولا سيما يعطف على عبداته اللواتي يخلصن له النية . وعديني بالقرابين والضحايا وانا القنك صلاة الالهة « إشتر » . إلاهة اللذات والتناسل فتشفق عليك وعلى شعورك وغرامك فتظفري بموضوع حبك .

وكانت ظواهر البشر تلوح على وجه شميرام وكل لفظة من لسان ذلك الدجال كانت تبعث وميض الرجاء في نفسها وتحيي ميت آمالها فارتاحت الى

اقاويله وعقدت بها حبل امانيها ولا سيما نجيتها نتو فانها مهدت لها الطرق ووافقت على نصائح بيروس قائلة : ان الكهنة يناجون الالهة فتوحي اليهم كل ما هو صالح للبشر فثقي بقوله ووطدي رجاءك واعملي بما يوصيك به . فاخذهما اثنئذ بيروس ووقف بهما بين يدي تمثال الالاهة أشتر وهي معبودة عريضة الوجه واضعة يديها على صدرها ثم لقنهما صلاة تلتاها بعبارة .

ولما انتهت الصلاة غادرتا الهيكل . وتبع بيروس خطواتها . وفي مجاز الهيكل همس في اذن نتو كلاما لم تشعر به شميرام لانشغال بالها .

قالت نتو لشميرام: عسى ان الالهة تقبل ادعيتنا وتستجيب صلواتنا لاسيما بيروس سيقدم اليها الضحايا والقرابين . وهل فكرت جيدا ايتها السيدة كيف انه احلك مقاما رفيعا . فتقدم الينا من بين اقرانه الكهنة ووازرنا في بغيتنا . الحق يقال ان اريحيته تشف عن كرم عنصره .

شميرام — تلك فريضة عليه وعلى فرقته الكلدان .

نتو — بينك وبين بيروس بون شاسع وبين القلبين فج عميق .

شميرام — ما ذا تعنين بكلامك والى م تومئين ؟

نتو — ان الالهة عطفت عليك وتيمت قلبا في حبك .

شميرام — ومن ذا ؟

نتو — بيروس الكاهن .

شميرام — انا بواد والالهة بواد. فلم تأنب الكون وآلهته ، والطبيعة واوبابها على اغتصاب قلبي ، لا وايلو ! لا اتخذ قرينا إلا شمشو ، شمس الزمان وبدر الشبان . الا تعلمين يا نتو ان بيروس متزوج بامرأتين فكيف ترضين به زوجا لي فاكون ثالثتهما .

نتو — أني تحبين شمشو ؟ وما ذا يهمك زواج بيروس انه يتخذك اعلاهما مقاما وتكونين عنده ربة الحل والعقد .

شميرام — اني لا اصبو الى غير شمشو نجل عمتي فهو بغيتي الوحيدة .

نتو — او لا تعلمين ان شمشو مفتون بحب غيرك ؟

شميرام — أ لعلك تريدين ان تقولي انه يحب حترا بنت إجيبي الصراف ؟

نتو ــ نعم . اما بيروس فمشغوف بهواك . ويفدي كل عزيز غال في سبيل حبك.

شميرام ــ ان شمشو وان كان يهوى غيري إلّا اني اهواه ، ومن احق من بنت الخال بابن عمتها وسأبذل جهدي في اسر قلبه بحب غير حب ابن العمة لابنة خاله . وسيساعدني الزمان على ذلك . ومن ذا الذي يقدر ان يمحو حبه من فؤادي فلا اطمع في حب غيره . ولا مرية في ان مجرى الحب سيتصل بفؤادي ويتخذ له من القلب الى القلب سبيلا .

نتو ــ لا ارى داعيا لتعلقك وهيامك بشمشو وهو مشغول عنك بعشيقته . فخير لك ان تحببي من يهواك وتدفعي عنك عناء انت في غنى عنه .

شميرام ــ اضربي صفحا عن ذكر بيروس فهذا امر يعد تحقيقه من رابع المستحيلات ولا امالك عليه ولا يطاوعني قلبي ان احبه . وهبي اني تعلقت به فدون ذلك عقبات جمة . ووالدي يقف عثرة في سبيل هذا الزواج ولا يعطيني لكاهن لما بين طبقة الاشراف والكهنة من التنافر والخصام في بابل .

نتو ــ مالك إلّا ان تلقي زمام الموافقة في حب بيروس وهو يدبر الامر مع والدك .

لما رأت شميرام هذا الالحاح قطبت حاجبيها وقالت يكفيك يا عبدة السوء ان تحاولي السيادة على قلبي ولا ارضى ان تفاتحيني مرة اخرى بهذه المزعجات المكدرات .

فانزعجت نتو من هذا اللوم وانقبض صدرها من توبيخ سيدتها ولكنها كظمت الغيظ . واتى لها ان تظهره وهي من الجواري وفي عنقها قطعة من الحديد مكتوب عليها انها ملك شلمان كرادو (اي ابي شميرام) ولكنها اضمرت لها سوءا وفكرت في تدبير حيلة تصطادها بها .

وكانت شميرام تسرح نظرها في طرق بابل الواسعة المستقيمة وتشاهد البيوت الفخمة وقصور الملوك وتقر عينا برؤية الجنان والبساتين المحاذية البيوت وتسر بمشاهدة المروج الملاصقة قصور الامراء والاشراف والمثرين المرصدة لزراعة البقول وشاهدت في الطريق الخيل والحمير والحمالين ينقلون اشياء

كثيرة . فالتفتت الى نتو وقالت : ماذا يحمل هؤلاء الحمالون ؟

فاجابتها : يحملون القار والزفت .

شميرام — من اين يأتون به ولاي شيء يصلح ؟

نتو — يأتون به من مدينة هيت التي تبعد ثمانية ايام عن حاضرتنا . فانه ينبجس من الارض ويتدفق في نهر هيت فيجمع ويتخذ للبناء والتبليط .

شميرام — انظري يا نتو كيف ان النساء في الدكاكين والمخازن سافرات الوجه يقضين اوقاتهن ذهابا وايابا في الازقة ويحملن اولادهن على ظهورهن

نتو — نعم يا سيدتي . تلك نساء العامة اما الشريفات مثلك فانهن سجينات البيوت لا يخرجن الى الهيكل إلّا نادرا او لزيارة اصدقائهن محتاطات بالجواري والعبيد كأن الرجال يريدون اختطافهن وهن يتبخترن في الطرق تيها ودلالا .

شميرام — اني لا احب هذه الفخفخة وافضل عليها البساطة ولهذا لا اود ان يحف بي العبيد والجواري واحب شيء اليّ من ذلك كله ان اقضي اوقاتي بمسامرتك .

نتو — سيدتي . اني اتشرف بمرافقتك وبعطفك علي واتلقى كل كلمة تفوهين بها بالترحاب وان كانت زجرا وتانيبا . لاني انا التي عنيت بك وقد حملتك طفلة على ذراعي . ثم حاولت نتو ان تذكرها بانتفاضها من حديثها عن بيروس غير ان سيدتها خفت مهرولة ودخلت البيت .

لبيت شميرام او بيت شلمان كرادو كما يعرفه البابليون شهرة بعيدة لعظمته وبنائه . لان صاحبه من الاشراف المثرين في المدينة . في مدخل هذه الدار مجاز طويل مظلم معقود بالاجر يفضي الى ساحة واسعة الفناء مطلقة الهواء تشرق عليها الشمس فتبهجها . وحوالي هذه العرصة تقوم الابنية . وامام الغرف رواق مسقف ووجه البناء على هيئة طاق تسنده اعمدة . والبناء طبقة واحدة والغرف ضيقة مستطيلة الشكل . وسقوف بعضها معقودة بالاجر وغيرها مسقفة تسقيفا مسطحا بجذوع النخل . وبعض هذه الغرف مخصص بالسكنى وبعضها بالمؤن . ولها سطح واحد يصعدون اليه بدرج مبني بالاجر والبيوت تطل بعضها على بعض .

وفي البيت سرداب لاينفذ اليه إلّا نور ضئيل يقضي فيه سكانه هاجرة الحر . ويقسم البيت الى ثلاثة اقسام . قسم للرجال وقسم للحريم والقسم الثالث للمطبخ والعبيد والجواري . والمطبخ مشيد باللبن . ووراء البيت جنينة وحقل للزرع . وكان الاثاث كراسي مختلفة الاشكال و حصرانا منسوجة من الخوص وخوابي واوعية وحبابا مشوية بالنار ومطلية بالالوان . وفي غرفة شلمان كرادو وامراته سريران من خشب قوائمها على شكل ارجل اسد وفوق كل سرير فراش وثير ولحافان . وكذا قل عن سرير شميرام . وفي غرفة شميرام سجادة بديعة قد نسجتها بيديها في وقت الفراغ . وهناك اوعية صغيرة للكحل والحمرة واصباغ الوجه والشعر وغيرها من ادوات الزينة . وفي المطبخ رحى وتنور وقدور كبيرة . وفي الدار صواني ومائدة وملاعق وشوكات للاكل . كان العبيد والجواري يقومون باشغال البيت من طحن وعجن وخبز وطبخ وغسل ثياب وغيرها .

كانت تجتمع اسرة « عائلة » شلمان كرادو يوميا للاكل معا إلّا ان النساء يعتزلن الرجال في المآدب .

شبت شميرام في ذلك البيت اليفة الدلال وحليفة الشرف تقضي معظم اوقاتها في البطالة ومحادثة جاراتها من السطح وما كانت تترك السطح إلّا اذا اشتدت حرارة الشمس وتعود اليه عند انحدار الشمس الى المغيب وكانت تزوراحيانا صديقاتها في بيوتهن او تذهب الى التنزه او الى الهيكل للصلاة وقلما تعاني مشقة اشغال البيت مثل بنات الاوساط او الفقراء . وعندما يضيمها الضجر ويلحقها السام تعمد الى الخياطة والتطريز وكانت حياتها على هذا الطرز من الفقر والكسل شأن كل بنات بابل المترفهات الناعمات .

لما صارت شميرام في فناء الدار رفعت نقابها وعمدت الى كوز (تنكة) كانت معلقة بجسر الممشى وارتشفت الخمرة التي كانت فيها حتى ثمالتها واتجهت توا الى غرفتها ومدت الحصير على الارض واستندت الى الوسائد الناعمة ثم اطلقت نفسها للهواجس .

يوسف قنيمة